السُّيُوطيّ والقواعد الفِقهيّة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في محكم التنزيل : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، المبعوث رحمة للعالمين ، معلم الناس الخير ، والداعي إلى التفقه بالدين بقوله : «مَنْ يُرِدِ الله به خيراً يفقهه في الدِّين ، وإنَّما أنا قاسم ، والله يُعطي ، ولن تزال هذه الأمة قائمةً على أمر الله ، لا يضرُّهم من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله»(١) .

وبعد : فقد كان السيوطي رحمه الله تعالى في مطلع القرن العاشر الهجري مالىء الدنيا ، وشاغل الناس ، بعد أن نضج فكره ، واكتمل عقله ، وشاع ذكره ، وانتشرت كتبه ، وطار اسمه في الآفاق ، فصار ملء السمع والبصر في محافل العلم والعلماء ، وفي أفنية الدراسة والتدريس ، وفي ردهات المكاتب العلمية والمكتبات العامة والخاصة ، حتى توفاه الله تعالىٰ سنة ٩١١هـ ، فبقي ذكره خالداً ، وشهرته تفوح في مختلف العلوم الإسلامية ، والفنون العربية ، والدراسات الشرعية ، وبحوث التاريخ والتراجم ، ولا تزال مجالس العلم والعلماء ترشف من علومه ، وتعتمد

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٩) وهذا لفظه ، ومسلم (٧/ ١٢٧) والإمام أحمد عن معاوية ابن أبي سفيان ، ورواه الترمذي وأحمد عن ابن عباس ، ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة (فيض القدير ٦/ ٢٤٢).

على كتبه ومصنفاته ، وتتناول مساهمته في الثقافة الإسلامية ، والحضارة العربية .

وبمناسبة مرور خمسة قرون على وفاة السيوطي ، فإن حياته العلمية تعرض على بساط البحث والدراسة ، ليتناولها الكتاب والعلماء والمفكرون والباحثون بالإكبار والتمحيص والإجلال ، لإحياء ذكرى الخالدين ، وتكوين باقة زهر تنشر شذاها رحمة على روحه ، والاعتراف بفضله ، وتجديد الصلة بعلومه وكتبه .

وأحصر مساهمتي في هذا الخصوص بأحد الأركان المهمة في حياة السيوطي الفقهية ، وأحد الجوانب الناصعة في القواعد الفقهية ، وعلى الخصوص كتاب السيوطي الشهير «الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية» ، وذلك في تمهيد وقسمين وخاتمة .

ـ **التمهيد** : وفيه تعريف موجز بشخصية السيوطي عامة ، ومكانته الفقهية خاصة .

ـ **القسم الأول** : وفيه دراسة موضوعية وتاريخية عن القواعد الفقهية .

ـ **القسم الثاني** : وفيه دراسة تحليلية لكتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطي .

ـ **الخاتمة** : في تلخيص نتائج البحث .

ونسأل الله التوفيق والعون والسداد .

تمهيد : عن حياة السيوطي ومكانته الفقهية :

نبذة مختصرة للتعريف بالسيوطي :

هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين ، الأسيوطي ، الخضيري ، الملقب بجلال الدين ، الشهير بالسيوطي ، العلامة ، الفقيه الشافعي ، الحافظ ، المؤرخ ، الأصولي ، النحوي ، المفسر ، الأديب ، صاحب المؤلفات النافعة الكثيرة .

ولد في القاهرة (سنة ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م) ونشأ يتيماً ، مات والده وعمره خمس سنوات ، وحفظ القرآن وعمره ثماني سنوات ، ورزق التبحر في سبعة علوم ، وهي: التفسير والفقه ، والحديث والنحو ، والمعاني والبديع والبيان ، ودرس أصول الفقه والفرائض ، والجدل والصرف ، والإنشاء والترسل ، والقراءات ، كما درس الطب والحساب.

سافر السيوطي في طلب العلم والاستزادة منه إلى الفيوم ودمياط والمحلة ، ومكة المكرمة ، وبلاد الشام واليمن ، والمغرب والتكرور ، حتى بلغ رتبة الاجتهاد ، وقال: «كملت عندي آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى» ، وأذن له عدد من شيوخه بالتدريس والإفتاء وإملاء الحديث ، وبدأ بالتصنيف والتأليف ، واختصر كثيراً من الكتب المهمة ، فنقحها وعدلها ، حتى بلغت مصنفاته ستمئة مصنف ، في التفسير والقراءات وعلم القرآن ، وفي الحديث والفقه ، والنحو والعربية ، والأصول والبيان ، والتصوف والتاريخ ، والتراجم والأدب ، ويفرد لها بحث خاص.

ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس ، وخلا بنفسه في روضة المقياس على النيل في القاهرة ، وانزوى عن أصحابه ، وعن الحكام والأمراء ، وكانوا يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها ، وبقي كذلك حتى توفاه الله تعالى (سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م).

وكان السيوطي آية في سرعة الجمع والتأليف ، وخلف المؤلفات الحافلة النافعة الجامعة المتقنة التي تداولها الناس في البلدان ، وتلقاها العلماء بالقبول ، واشتهرت في مختلف الأرجاء ، وعمّ النفع بها.

قال الشوكاني عنه: «برز في جميع الفنون ، وفاق الأقران ، واشتهر ذكره ، وبعد صيته ، وصنف الكتب المفيدة» إلى أن قال: «وتصانيفه في

كل فن من الفنون مقبولة ، وقد سارت في الأقطار مسيرة النهار»[1].

مكانة السيوطي الفقهية:

اتجه السيوطي رحمه الله تعالى إلى علم الفقه ، فدرسه على كبار علماء عصره ، وحفظ كتاب «عمدة الأحكام»[2] و«المنهاج» للنووي ، و«المنهاج» في أصول الفقه للبيضاوي ، وزاد في أخذ الفقه عن جماعة من الشيوخ ، ثم لازم شيخ الإسلام علم الدين البُلْقيني في الفقه حتى مات[3] (سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م) فلازم ولده ، وقرأ عليه عدة كتب في الفقه ، إلى أن أجازه بالتدريس والإفتاء سنة ست وسبعين وثمانمئة ، وبعد وفاته لزم شيخ الإسلام شرف الدين المناوي ، وأخذ الفرائض عن العلامة فرضي زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحي[4].

وكان السيوطي يحب الفقه ، ويطمع أن يبلغ فيه مداه ، فيقول عن نفسه: «فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ» ثم يقول: «وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، ولما حججتُ شربت من ماء زمزم لأمور؛ منها أن أصل في

---

(١) البدر الطالع ١/ ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، وانظر: حسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٣٣٥ ، الضوء اللامع للسخاوي ٤/ ٦٥ ، الفتح المبين ٣/ ٦٥ ، شذرات الذهب لابن العماد ٨/ ٥١ ، معجم المطبوعات لسركيس ص١٠٧٣ ، الأعلام للزركلي ٤/ ٧١.

(٢) الغالب أنها «عمدة الأحكام» في الفروع للشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد ، موفق الدين بن قدامة الحنبلي المقدسي ، المتوفى سنة ٦٢٠هـ ، وهو مختصر في العبادات الخمس. (كشف الظنون ١/ ١٣١).

(٣) هو شيخ الإسلام صالح بن عمر بن رُسْلان البُلقيني ، القاضي ، من علماء الحديث والفقه الشافعي وهو ابن شيخ الإسلام سراج الدين البُلقيني (٨٠٥هـ) ، وجمع فتاوى والده ، وتصدر للإفتاء والتدريس ، وولي قضاء الديار المصرية ، وتوفي وهو على القضاء (الأعلام ٣/ ٢٧٩).

(٤) حسن المحاضرة ١/ ٣٣٦ ، ٣٣٧.

الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البُلْقيني ، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر ، وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين»[1].

ويقول السيوطي عن نفسه أيضاً: «ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع على طريقة العرب والبُلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة»[2].

ولكن السيوطي يعترف أنه حلَّق في معظم هذه العلوم ، وفاق فيها أقرانه وأشياخه ، ولكنه لم يبلغ نفس المرتبة في الفقه والفرائض ، فيقول: «والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة ، سوى الفقه ، والنقول التي اطلعت عليها فيها ، لم يصل إليها ، ولا وقف عليه أحد من أشياخي ، فضلاً عمن دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيخي أوسع نظراً ، وأطول باعاً» ثم يقول: «ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجدل. . ، ودونها الفرائض»[3].

مصنفات السيوطي في الفقه:

ومما يدل على المكانة الفقهية التي يتمتع بها السيوطي ، أنه اشتغل بالفقه مدة طويلة ، وعاش في أجوائه ، ومارس العمل فيه ، وصار له باع كبير فيه إفتاء وتدريساً واختصاراً لأشهر كتب الفقه وأهمها ، وأوسعها في المذهب الشافعي ثم صنف استقلالاً ، ولذلك نذكر أهم آثاره الفقهية.

١ ـ مختصر «الحاوي الكبير للماوردي» وتوجد منه نسخة كاملة في المغرب.

٢ ـ مختصر «الروضة للنووي» ويسمى «الفتية».

---

(١) حسن المحاضرة ١/٣٣٦ ، ٣٣٨.
(٢) حسن المحاضرة ١/٣٣٨.
(٣) المرجع السابق.

٣ ـ مختصر «التنبيه للشيرازي» ويسمى «الوافي».

٤ ـ مختصر «الأحكام السلطانية للماوردي».

٥ ـ الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون، ويقول السيوطي في مقدمته: «وبعد فقد استخرت الله تعالى في جمع نبذ من مهمات الفتاوى التي أفتيت بها على كثرتها جداً، مفتصراً على المهم والعويص، وما في تدوينه نفع واجداء، وتركت غالب الواضحات وبدأت بالفقهيات، مرتبة على الأبواب»[1]، وجاءت الفتاوى الفقهية من ص ٥ حتى ص ٢٩٤.

٦ ـ الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، وسوف نفرده بالبحث في القسم الثاني.

وإذا أراد القارىء الكريم معرفة الجهد الفقهي الذي بذله السيوطي، فإننا نشير باختصار إلى الكتب الخمسة الأولى، فالحاوي الكبير للماوردي من أهم كتب الفقه في المذهب الشافعي وأوسعها ولا يزال مخطوطاً حتى الآن، ويقع في ٢٤ مجلداً كبيراً وروضة الطالبين للنووي من أهم الكتب المعتمدة في المذهب الشافعي، وطبعت في ١٢ مجلداً كبيراً، والتنبيه للشيرازي أشهر مختصر في الفقه، بل هو الكتاب المدرسي الأساسي الذي يعول عليه الطلاب حتى القرن السابع الهجري، ويتنافس في حفظه العلماء، وله أكثر من سبعين شرحاً وتعليقاً، والأحكام السلطانية للماوردي أشهر كتاب في الأنظمة الإسلامية، وخاصة في نظام الحكم والخلافة والقضاء والحسبة والمظالم، ومعظم العلماء عالة عليه في هذا الخصوص.

---

(١) الحاوي للفتاوي ١/ ٥، والكتاب طبع عدة مرات، أحسنها طبعة إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٥٣هـ.

وهذا يدل على أن السيوطي رحمه الله حلق في علم الفقه دراسة وتدريساً ، وإفتاء وتصنيفاً ، وبحثاً واختصاراً واجتهاداً ، وسوف نرى نموذجاً عملياً لذلك ، وبرهاناً ساطعاً في دراسة كتابه الشهير «الأشباه والنظائر».

السيوطي مجتهداً:

ومما يعزز مكانة السيوطي الفقهية أنه لم يقف في طلب الفقه ودراسته ومدارسته وتدريسه والتصنيف فيه عند حد معين ، بل قصد فيه الذروة ، وسعى إلى القمة ، وحرص للوصول إلى ينابيع الفقه ومعينه ، ليبلغ درجة الاجتهاد.

والاجتهاد لغة: عبارة عن بذل المجهود ، واستفراغ الوسع في تحقيق أمر من الأمور التي فيها كلفة ومشقة ، وعرفه القاضي البيضاوي بأنه «استفراغ الجهد في دَرْك الأحكام الشرعية»[1].

والاجتهاد أعظم درجات الفقه في الدين ، والتفقه في الشرع ، والإحاطة بفهم النصوص ، والقدرة على الاستنباط منها ، وبذل الجهد في معرفة الأحكام الشرعية العلمية من أدلتها التفصيلية ، وله شروط معينة ، وصفات محددة ، ويعتمد على علوم متنوعة[2].

والسيوطي توفرت فيه شروط الاجتهاد ، وكملت فيه صفاته ، وحصل العلوم المطلوبة فيه ، وخاصة العلوم الشرعية ، والعلوم العربية ، وعلوم الآلة ، حتى أدرك مناط البحث والاستنباط ، وعرف بنفسه ذلك ، فلم يتوار عن الأنظار ، ولم يبخس نفسه حقها ، وادعى رتبة الاجتهاد ، وأنه بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق ، وكسر القيد الوهمي الذي كان شائعاً في

---

(١) نهاية السول في شرح منهاج الأصول ٤/ ٥٢٤.

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتب أصول الفقه ، ومنها: نهاية السول ٤/ ٥٤٧.

إغلاق باب الاجتهاد ، وطلب فتحه لمن توفرت فيه شروطه ، وأثبت أن الاجتهاد باق في الشرع ، وأنه موجود في كل زمان ومكان ، وأقام الحجة الشرعية على ذلك ، وقدَّم الأدلة التاريخية ، والأمثلة العملية من كبار العلماء والفقهاء في مختلف المذاهب والأزمان ، وصنف كتاباً في الدعوة إلى الاجتهاد ، ووجوب إحيائه وممارسته ، والنعي على تركه أو التخلي عنه ، أو التواضع فيه ، وأشار إلى ذلك في عنوان الكتاب:

«الرد على من أخلد إلى الأرض ، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض»[1].

ولكن السيوطي اعترف أنه لم يخرج في اجتهاده عن أصول المذهب الشافعي ، فقال: «ولما بلغت درجة الترجيح لم أخرج في الإفتاء عن ترجيح النووي ، وإن كان الراجح عندي خلافه ، ولما بلغت درجة الاجتهاد المطلق لم أخرج في الإفتاء عن مذهب الإمام الشافعي ، كما كان القفال ، وقد بلغ رتبة الاجتهاد ، يفتي بمذهب الشافعي ، لا باختياره»[2].

ويقول السيوطي أيضاً: «فقد بلغت ولله الحمد والمنة ـ رتبة الاجتهاد المطلق في: الأحكام الشرعية ، وفي الحديث النبوي ، وفي العربية»[3].

وقد تفرد السيوطي بخمسة وثلاثين رأياً ، وكتب بذلك كتاباً ، سماه

---

(١) طبع الكتاب عدة مرات ، منها طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م بتقديم وتحقيق الشيخ خليل الميس ، ومنها طبعة مؤسسة شباب الجامعة ، بالإسكندرية سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م بتحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم.

(٢) الرد على من أخلد إلى الأرض ص ١٤.

(٣) المرجع السابق ص ١٥.

«التحدث بنعمة الله» وختمه بهذه المسائل والآراء التي أثبت فيها اختياراته[1].

ولكن العلماء لم يسلموا له هذه الدعوى، لأنه لم يبتكر أصولاً للاجتهاد، وقواعد للاستنباط، ليعتمد عليها في اجتهاده، دون أن يقلد غيره، كما هو شأن المجتهد المطلق، وهذا يحتاج لمزيد بحث، ويخصص له مقال مستقل.

ويكفي أن نكرر عبارته، متحدثاً فيها عن فضل الله ونعمته عليه، فيقول: «وقد كملت عندي آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى، لا فخراً، وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر، وقد أزف الرحيل، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر! ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها ونقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرتُ على ذلك من فضل الله، لا بحولي، ولا بقوتي، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله لا قوة إلا بالله»[2].

وهذا كلام صريح أنه بلغ رتبة الاجتهاد عندما تقدم في السن، ولذلك لم يمارس الاجتهاد بتوسع كبقية الأئمة، ونازعه غيره في هذه الدعوى.

القسم الأول: دراسة تاريخية وموضوعية للقواعد الفقهية:

تمثل القواعد الفقهية مرحلة متطورة ومتقدمة في تاريخ الفقه الإسلامي ونموه وتدرجه وتدوينه، وهذا يقتضي منا أن نعرج على تعريف الفقه وأهميته وسيرته التاريخية.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠.

(٢) حسن المحاضرة ١/٣٣٩.